من القصص العربي

ثقيل ما أظرفه

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

قال الفتى لصاحبه وهو يقص عليه تاريخه ويروى له من حوادثه : لقد نشأت ياصاحبي في البصرة ، وقد كان والدي من أجواد البادية ، وأجواد العرب ، قضت عليه شؤون الدنيا بالنزوح إلى ذلك المصر، يوم أن شب على جدرانه النعيم، وأشرقت في محلاته(١) أنوار الحضارة ، فنسلت إليه صنوف الناس من كل حدب ، وفيهم طالب الكسب بالتجارة ، والراغب في العلم بالتعلم ، والطامع في الصلة بالشعر ، والحريص على متاع الحضارة بالبذل ، ولست أدري لأي أمر من هذه الأمور نزح والدي عن موطنه ، ولكني أدري أنه ما كان في حاجة إلى مال ، ولا هو من أهل الرغبة في العلم ، فلعله كان لايطمع إلا في نعيم الحضارة الوارف ، يروى به جسمه ويمتع به نفسه . على أني سمعت بأنه كان مطلوباً بدم في إحدى القبائل فربما كانت هجرته فراراً من العدو وخوفاً من الانتقام

وليس تحقيق هذا مما يعنيني ، وإنما أريد أن أقول لك : إن والدي لم يعرف للحضارة أساليبها ، فعاش في حياته الجديدة على أوضاع الحياة القديمة ، فالامتهان في نظره مهانة ، والعمل في تقديره ذلة ، والمال في يده شيء حقير تافه يبذره باسم الجود ، ويسرف فيه بلفظ الانفاق ، ففي كل عشية له مجلس عامر بالغناء والشراب ، وفي كل ضحوة سامر حافل بالإخوان والأصحاب ، وبين هذه وتلك موائد ممدودة ، وولائم قائمة ، كأن أيام عندنا عرس دائم ، فكان أن درجت في أعطاف هذا البذخ ، ومررت على هذه الحياة اللاهية المسرفة حتى كنت فتى يافعا ولم تعرف الأيام مني غير اللهو المسرف ، والتبذل المفرط ، والبطالة المستهترة . ليس في تفكيري أن أعمل ، بل ليس من همي إلا أن أشبع الجسد من لذائذ الحضارة ومتاعها الموفور .

ومضت السنون بعضها في أعقاب بعض ، ونحن على هذه الحال من السرف والبطالة ، وكان لابد للمعين أن ينضب ، فقل المال الكثير ، وتضاءلت الثروة الضخمة ، ولم يلبث والدي أن مات بعمره ، واذا كان لي أن أنسى فلن أنسى ما حييت يوم أن عدت من قبره أتكسر على نفسي كما يعود القائد المخذول من ساحة الحرب ، أحصي المال المتروك فلا أقع على شيء ، وأتلمس الأصحاب فلا أقف لهم على ظل ، وأنظر إلى نفسي فأجدني كالآلة المعطلة لا أصلح لشأن من شؤون الحياة ، حتى ليرهقني سد الرمق في مجتمع صاخب عجاج يتدافع أهله بالمناكب في طلب الرزق ، ويقتتلون على الفوز باللقمة الحقيرة ، وأن من الصعب على نفسي أطلب العيش من مروءات الناس ، وأن أقيم الأود من فضلهم ومعروفهم، لأن ذل السؤال صعب على نفس يجري في عنصرها إباء البادية ، وتكنفها كرم النشأة ، وقد قيل : إن من طبع الكريم أن يخفي عسرته ويكتم شدته :

يخفي الضلوع على مثل اللظى حرقا
والوجه غمر بماء البشر ملآن

ويعلم الله لقد كتمت ما استطعت ، وصبرت حتى أرهقني الصبر وكنت كل يوم أؤمل في غد فلا يكون الغد إلا أشد . آه ياصاحبي لشد ما ضمني الدهر ضما لارحمة فيه ولا شفقة ! ولشد ما عركتني الأيام عرك الرحى بثفالها كما يقولون ! ولا أكتمك أني فكرت في الخلاص من ذلك بالموت ، ولكني خفت أن يقول الناس في شأني : جبان فر من معركة الحياة ، ومارق تمرد على حكم القدر ؛ وعملت على أن أصل نفسي بموطن العشيرة في البادية ، ولكني تذكرت الدم الذي كان مطلوبا به والدي فخشيت الهلاك من تلك الناحية ، لأن البدوي حريص على ثأره مهما طال به الزمن ، حتى ليطلبه في الأجيال المتعاقبة

فلما اضطرب بي الفكر ، وتبلبل مني الخاطر ، سألت صاحباً

(١) جمع محلة وقد كان العرب يقسمون مدنهم إلى محلات وأخطاط كما تقسم مدننا إلى أحياء

من أهل الرأى لعله يشير بما ينفع ، فقال لى : لو ذهبت فتسببت . فقلت : مالى صناعة ، ولا عندى بضاعة ! فقال : على كل حال : انك امرؤ فيك ظرف ، ولك لطف ، وانك لو انحدرت إلى بغداد لاتعدم لك فى مجالسها السامرة ، وأنديتها الساهرة . فرأيتها نصيحة نافعة من الرجل ، وقلت لعل الأخذ بها يجدى ، فانى أحفظ عن والدى شيئاً من طرائف الأعراب وقصص البادية . ولقد أكسبتنى الحياة السالفة دراية بأداء الحديث ، اختار له موضعه ، وأخرجه مخرجه ، وأعرف كيف أصل به إلى نفس السامع ، وأستطيع أن أجرى النادرة الطيبة فاهز القلوب وأحرك المشاعر . على أنى قدرت فى ذلك السفر منأى يسترنى عن اخوان أكتم عنهم حالى ، ويخجلنى أن يرونى أتدنى فى طلب الرزق ، فعزمت على تحقيق الفكرة ، ولم يبخل على الرجل بزاد السفر ، وسرعان ما كنت فى الركب السائر والقافلة الراحلة .

هبطت بغداد يا أختى أجهل ما أكون بمسالكها ومحلاتها ، فأخذت فى السير على هدى السابلة ، وإرشاد المارة ، حتى انتهيت إلى دارة الخلافة ، ونزلت بدار الضافة ، وكأن نحس الطالع قد سبقنى إلى ذلك البلد الأمين ، إذ علمت أن الخليفة المأمون قد حرم الغناء وشدد فيه ، وأمسك على الناس أبواب اللهو والاستهتار ، فانفضت الملاعب والمشاهد ، وأعتمت الأندية والسوامر ، وصار ليل المدينة ليلا محلولكا مملولا ، لا يرن به طاس ولا يحن فيه مزهر ، فايقنت بنحس السفرة وحبوط المسعى ، وتمثلت لى الدنيا فى مثل كفة الحابل ، وهانت على النفس العزيزة ، إذ لم أجد أمامى طريقا للعيش غير التساقط على بيوت أهل الفضل والخير ، أتدسس إلى موائدهم ، وانقحم على ولائمهم ، وأنف فى طريقهم ، وأجرى فى ركبهم ، فلم تمض أيام حتى كنت قد وقفت على جميع اعيان المدينة ووجوه القوم ، وعرفت مراتبهم فى الجود والخير ، وتبينت اساليبهم فى الحياة ونظام العيش ، وعزفونى هم كذلك متطفلا بغيضاً وفضولياً ثقيلا ! .

فانى لفى يوم خرجت فيه إلى الجسر (١) ، علنى أجد أميراً أتبعه ، أو كبيراً أمتاح من فضله ، فلم أذهب غير بعيد حتى رأيت إسحاق الموصلى يتحدث إلى على بن هشام بكلام يخفيه ، فأرهفت أذنى أتسمع فسمعته يقول : لقد زارتنى اليوم فلانة يا على ، وهى كما تعلم من أحسن الناس غناء ، وأطيبهم محضراً ، فيحياتى إلا كنت اليوم عندى ، فنجلو السمع ونمتع القلب ، ونتنهزها فترة من فترات العمر التى حرمناها ، ونعيدها ذكرى من ذكريات الأيام الماضية ، فوعده بالحضور ومضى كل لسبيله . فقلت فى نفسى : يا لها من فرصة سانحة لابد أن أحتال فى اغتنامها ! وأخذت أفكر وأقدر ، وأسعفتنى الفكرة بالحيلة النافذة ، فلت إلى من أعارنى الزى النبيل والمركب الفاره ، ومضيت إلى منزل على بن هشام فقلت لحاجبه : عرف الأمير أن رسول صاحبه اسحاق الموصلى بالباب ، فدخل الحاجب وخرج مسرعا يحمل الأذن بالدخول ، فدخلت على على فرحب بى أجمل ترحيب ، فقلت له : صاحبك إسحاق يقول لك إنك تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عنى ؟ فقال : الساعة وحياتك نزلت من الركوب ، والساعة أغير ثيابى وأوافيه ، فامهله قليلا وإنى على أثرك .

فاستويت على دابتى ، ووافيت منزل اسحاق ، فقلت للحاجب عرف الأمير أنى رسول على بن هشام ، فدخل الحاجب وخرج مسرعاً يقول : ادخل ياسيدى جعلت فداك ، فدخلت فسلمت ، فنهض إلى إسحاق فى بشاشة ، فقلت : أخوك على يقرئك السلام ، ويقول لك الساعة نزلت من الركوب ، وقد غيرت ثيابى وتأهبت للمسير تحقيقا لوعدك فمارى ؟ فقال : قل له ياسيدى قتلتنا جوعاً ، ونحن من انتظارك على أحر من الجمر ، فحياتى إلا ما أسرعت

فعدت إلى منزل على ، وقلت للحاجب عرف الأمير أن صاحبه أمرنى أن لا أبرح أو يجىء ، فقد طال عليه الانتظار ، وأضر به الجوع . فاسرع على تغيير ثيابه ، وركب دابته ، وسار وسرت من خلفه ، حتى نزل بباب إسحاق فنزلت معه ، وبعد السلام أخذنا مكاننا على المائدة . وإسحاق لايشك أنى أخص الناس بعلى ، وعلى لايشك أنى أخص الناس باسحاق ، فبالغ كل فى إكرامى وإيثارى باللقمة الشهية ، والجرعة الوثيرة . ولما قضينا حق الخوان أو حق البطن انصرفنا إلى الشراب ، وخرجت إلينا جارية كأن بشاراً كان ينظر إليها من وراء الغيب إذ يقول .

تلقى بتسبيحة من حسن ماخلقت وتستفز حشا الرائى بأرعاد
كأنما صورت من ماء لؤلؤة فكل جارحة وجه بمرصاد

ولم تلبث أن حملت عودها وغنت صوتاً فعلت فيه ما أحل الله وحرم ، ودارت الأقداح ، فشعشعت القلوب ، وايقظت العواطف وأفعمت النفس بالصفو والأنس ، وبقينا فى هذا حتى هم النهار بالتصرم ، وألح على البول فنهضت إلى الخلاء ، فسمعت علياً يقول لإسحاق : ألا ما أخف روح هذا الفتى ياسيدى وما أطيب نوادره ! فمن أى وقت كان لك ؟ فقال اسحاق : أوليس هو بصاحبك ؟ !

(١) هو جسر بغداد المشهور وقد كان للشعراء مسرح الهوى وله فى الشعر ذكر كثير

قال : لا وحياتك ولا أعرف أنى رأيته قبل اليوم ، وأنه جاءنى برسالتك يستعجلنى للحضور وقص قصته فى ذلك ، وقص اسحاق مثلها ، وداخله من الغيظ ما لم يملك معه نفسه ، فقال : أنها لكبيرة ياصديقى على النفس ، طفيلى يستجرىء على فيستبيح النظر إلى حرمى والدخول إلى دارى ! أبلغنا من الهوان إلى هذا الحد ، وبلغت الصفاقة بهذا وأمثاله إلى هذا القدر ؟ والله لابدأن أنتقم. وسأعرف كيف أصون بيتى من كل رذل ثقيل . ياغلمان ! السياط والمقارع . أعدوا عدتكم ، واحشدوا جمعكم . وقامت فى الدار جلبة ارتجت لها الجدران ، وارتاعت لهولها الجيران ، وكل هذا وأنا فى الخلاء أفكر وأقدر ؛ وكانت عزيمة صارمة ، إذ خرجت على القوم فى ثبات واطمئنان ، كأنى لا أعبأ بأمرهم ، ولا أحفل بشأنهم ، وأقبلت على اسحاق فقلت : وماذا بقى من جهدك بعد ذلك ؟ ألا ويل لك يا رجل ثم ويل ! لقد كان أولى بك أن تعرفنى قبل هذا كله ، فكنت هونت على نفسك هذا كله ؟ ! قال : ومن تكون ؟ قلت أنا - كما تقول - الثقيل البغيض المتطفل الذى اجترأ على بيتك واستباح النظر إلى حرمك . لا : بل أنا الذى أعددت له السياط والمقارع ، وانتدبت لضربه الجلادين ، وأقسمت بكل محرجة ألا تتركه إلا لحما من غير دم ، وعظما من غير لحم ، ولو علمت الواقع لعلمت أنى أنا القادر الذى عفوت ، والقوى الذى ساعدت ، وانى لا أستطيع أن آخذك بجرمك فأدفعك إلى الهلاك أنت وصاحبك دفعا . فشده الرجل بما سمع ، فقال : ولكن بربك ألا أخبرنى من أنت ؟ قلت . أنا صاحب خبر أمير المؤمنين وعينه والأمين على سره ، ووالله لولا تحرمى بطعامك ، ومحالتى بحديثك ، وأنى أعرفك أنت وصاحبك على الأخلاص للخليفة والطاعة له ، لتركتكما فى عمى من أمرى حتى تكنت تعرف عاقبة حالك ، وإقدامك على ما فيه هلاكك . فنهض إلى الرجلان يسكتانى فى استعطاف ، ويعتذران فى انكسار . وقال إسحاق : فديتك يا سيدى ! إنا لم نعرف حالك ، ولم نتبين أمرك ، فلنا العذر ، ونسألك الصفح ، ونضرع إليك فى كتمان ما كان ، وأنت بنا المحسن المجمل . فوعدتهما بالخير ، وقلت : لايخون العهد إلا لئيم وحاشاى . وجاء وقت الانصراف فخلع على إسحاق ثيابا فاخرة ، وأمر لى بمركب نيل ، ودفع إلى بصرة فيها ثلاثمائة دينار ، ونهض فى وداعى حتى مضيت .

فلما كان من الغد دخل على بن هشام على المامون فقال : كيف خبرك يا على فى أمس ؟ قالها على حسب مايجرى فى السؤال وقد كانت عادته ، ولم يفطن لها على فتغير لونه ، وانخذلت به رجلاه ، إذ لم يشك فى أن الحديث قد رفع إليه ، فاكب على البساط يقبله ويقول : يا أمير المؤمنين العفو ! يا أمير المؤمنين ! الصفح الجميل ! يا أمير المؤمنين الأمان ! فوالله لن تعود ، قال : لك الأمان ولكن بماذا جئت يا على ؟ فأخبره الخبر ، فضحك المامون حتى كاد أن يغشى عليه ، وقال : إنه لثقيل ولكن ما أظرفه ، ، وأرسل فى طلب إسحاق فلما حضر قال : هيه يا إسحاق ؟ كيف كان خبرك أمس ؟ فأخبره كخبر على بن هشام ، والمامون يضحك ويصفق من العجب ، ثم قال بحياتى ما فى الدنيا أملح من هذا ، فاطلب الرجل وجئنى به . واجتهد إسحاق فى ذلك حتى وجدنى ، فكنت على ماترى ياصاحبى فى المقدمين من ندماء المامون ، والأخيار من أصفيائه ، ولا تنس أن هذه قد حملت المأمون على أن يرد على الناس حريتهم ، فأباح لهم الغناء ، وتركهم يأخذون بأسباب الأنس والسرور

محمد فهمى عبد اللطيف

الى كل كاتب عربى فى مصر وفى غير مصر :

المباريات القصصية لمجلة (الرواية)

تشجيعاً للقصص العربى تفتتح (الرواية) مبارياتها السنوية فيه بهذه المباراة :

مباراة فى الأقصوصة

جائزتها خمسة عشر جنيها مصريا

يوزعها المحكمون على الفائزين الأول والثانى

الشروط

١ — أن تكون الأقصوصة شرقية الموضوع
٢ — » » » بليغة الأسلوب
٣ — » » » نبيلة الغرض
٤ — ألا تزيد على عشر صفحات من مجلة (الرواية)
٥ — ألا تكون الأقصوصة قد نشرت من قبل
٦ — الا يتأخر موعد إرسالها إلى إدارة (الرواية) عن آخر مايو سنة ١٩٣٧

لجنة التحكيم سنعلن عنها فيما بعد